استاذ النقد المقارن بجامعة دمشق
الدكتور عبد النبي اصطيف لـ «العالم»:

الاستشراق سلطة معرفية ينبغي ان نواجهها بقوة المعرفة

الدكتور عبد النبي اصطيف استاذ جامعي وله مقالات وكتب كثيرة وهي تدور حول قضايا النقد المقارن ونظرية الادب والاستشراق الانكلو ـ اميركي، وقد مثل مؤخرا سوريا في مؤتمر «آفاق العلاقات الثقافية العربية ـ الاوروبية: الماضي والحاضر والمستقبل». مندوب «العالم» التقاه واجرى معه حوارا حول اثر الاستشراق في تكوين الصورة الراهنة للعربي في الغرب وانعكاس العمل الاستشراقي على النشاط الفكري العربي الحديث:

● ما هو تحديدك لمصطلح الاستشراق؟

ـ مصطلح «الاستشراق» المستخدم في العربية الحديثة هو ترجمة للمصطلح الانكليزي Orientalism وللمصطلح الفرنسي Orientalisme. وغيرهما من المصطلحات المشابهة في اللغات الاوروبية الاخرى. ويستخدم للدلالة على اشياء ثلاثة:

١ـ الكتابات البحثية في مختلف انواع المعارف والعلوم التي انتجها المتخصصون بدراسة الشرق او من كانت لهم به صلة ما كالدبلوماسيين والرحالة وموظفي دوائر الدول الغربية التي استعمرت مختلف اقطار الشرق لفترات متفاوتة وبدرجات مختلفة.

٢ـ نزعة انتشرت في فن الرسم الاوروبي قامت على استلهام الشرق باتخاذه موضوعا فنيا اثيراً لديها ومثيرا لها. وهذه النزعة جزء من الثورة الرومانسية الاوروبية التي ضاقت بهيمنة الكلاسية الجديدة في مختلف الفنون الجميلة ومن بينها الرسم، مثلما تجده في لوحات جيروم ولويس وارنست وهنت.

٣ـ اتخاذ الشرق موضوعا للمؤلفات الادبية، او الهجرة الى الشرق على الورق كما نجده لدى غوتة في ديوانه المعروف «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» الذي احسن عبد الرحمن بدوي بترجمته الى العربية، واستلهام الشرق في المؤلفات الادبية يمت بصلة للنزعة الرومانسية ايضا.

وبالطبع فان هذه المعاني الثلاثة للاستشراق متصلة فيما بينها ومتبادلة التأثير ايضا، وجميعها يعبّر عن انشغال الثقافة الاوروبية بالآخر الذي هو الشرق في هذه الحالة، بدوافع مختلفة، ولاهداف متنوعة، ولكنها جميعا تشير الى معرفة ما انتجها الآخر عن الشرق، اي عنّا. والمعرفة قوة وسلطة، ولذلك عانينا من عقابيلها على نحو من الانحاء، لانها وظّفت في اثناء مواجهة الآخر لنا في القرنين الاخيرين بشكل خاص، لتسهيل سيادته وبسط نفوذه وارادته على بلادنا ومقدراتنا وخيراتنا.

● ومن هو المستشرق؟

ـ هو الباحث الجامعي الذي يدرس الشرق، او يدرّسه، او يبحث في شأن من شؤونه، او يكتب عنه، فهو الرحالة الذي يستهويه الشرق فيحج اليه بحثا عن مصدر الهام يمنحه فرصة تقديم كتاب ممتع ومفيد لقارئه مثلما فعل داوتي وبلغريف وغيرهما.

وهو الفنان التشكيلي الذي يتخذ من الشرق موضوعا له بحثا عن الجديد والمثير والخيالي والعجيب ليرضي جمهوره (دو لاكروا على سبيل المثال). هو الكاتب الذي يهاجر الى الشرق في ادبه ويكتب عنه مستفيدا من المعرفة الاستشراقية المتيسرة له على نحو من الانحاء مثل الشاعر السويدي غونر ايكيلوف. وهو الآخر الذي يمارس نشاطا ما تكون حصيلته معرفة ما عنا يقدّمها اساسا لمجتمعه.

● هل هناك اكثر من استشراق؟

ـ بالطبع، فالاستشراق معرفة انسانية ينتجها البشر، ولذا فانه يمكننا القول بان هناك استشراقات بعدد المستشرقين. لكن الاستشراق من جانب آخر معرفة متصلة بجملة من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية تعنى بالعلاقة ما بين مختلف فعاليات المجتمع الآخر والشرق. وهذا ما جعل هذه المعرفة تأخذ طابعا مؤسسيا.

ولما كانت هذه المعرفة قد ولدت ضمن عالم مشحون بالاحساس بالمواجهة بين الغرب والشرق، فقد وظّفت لصالح الآخر في هذه المواجهة عبر القرون. ومع ذلك فان هذا التقليد الثقافي الذي نشأ عن تنامي المعرفة الاستشراقية عبر القرون وخاصة في القرنين الماضيين، مثله في ذلك مثل اي انتاج انساني، يخضع لسنة التطور، وقد شهد في العقود الاخيرة تحولات هامة تسوّغ الحديث عن نوعين اساسيين من الاستشراق، قديم وجديد، قديم ما زال مسكونا بحس المواجهة الذي ذكرت، وجديد يرى ان هذه المعرفة ينبغي ان توظّف في فهم الآخر وبالتالي اقامة علاقة اكثر انسانية معه.

● وماذا عن الصورة التي كوّنتها المعرفة الاستشراقية عنا؟

ـ المعرفة الاستشراقية هي معرفة انتجها الآخر عنا، وهي معرفة دنيوية، اذا ما استخدمنا مصطلح ادوارد سعيد، بمعنى انها على صلة وثيقة بالعالم الذي انجبها، وهي لذلك مشروطة بجملة الشروط المكوّنة لهذا العالم. وثمة دراسات وافية عن صورتنا في هذه المعرفة الاستشراقية، يخلص قارئها الى امرين اولهما: ان المعرفة التي انتجها الآخر عنا وهو مسكون بحس المواجهة تنطوي على صورة بائسة للعرب وللمسلمين وللشرقيين فهم العدو والنقيض لكل ما يمثله الغرب. وسبب ذلك بسيط جدا. اذ ينبغي لك اذا ما اردت ان تهزم عدوا في مواجهة لك معه ان تهوّن من شأنه اولا، وان تسوّغ كل ما ترتكبه بحقه ثانيا، وان تضع نفسك على المدى الطويل بأحقية ما تقوم به اخلاقيا وحضاريا وسياسيا لتكفل الغطاء الايديولوجي لسيادتك التي تفرضها عليه ثالثا. وهذا كله لا تحققه الا المعرفة التي توظف لصالح المواجهة. وهذا حال الاستشراق القديم لانه معرفة انتجت ونشرت بغرض تدجين الشرق ومن فيه وما فيه ووضعه ضمن النفوذ الاوروبي واخضاعه للارادة الاوروبية.

وثانيهما ان المعرفة التي ينتجها اليوم المستشرقون الجدد الذي يوظفونها لصالح فهم الآخر تنطوي

على صورة انسانية للعرب وللمسلمين وللشرقيين، اي صورة اقرب الى واقع حال هؤلاء من الصورة الملفقة التي نجدها لدى الاستشراق القديم.

● اي الصورتين هي السائدة اليوم؟

ـ الصورة الاولى بالطبع وخاصة في اجهزة الاعلام الجماهيري التي تميل الى بذل اقل الجهود في تحصيلها للمعرفة المستخدمة، وبالتالي تعتمد على الصورة القديمة البائسة التي تظل اكثر اثارة وجاذبية وسحرا. واذا ما كنت اوروبيا ولا تحب ان تفكر كثيرا فيما تراه وتسمعه فانك بالتأكيد تفضل التعامل مع عربي يقفز اليك من عالم الف ليلة وليلة من ان تتعامل مع كائن حي مثلك له شروط حياته الخاصة، وظروفه، وتاريخه، وعاداته، وتقاليده، ومشاعره، واحاسيسه، وحياته الفنية المعقدة التي تماثل حياتك انت.

بالطبع الصورة الثانية لها حضورها المتواضع والمتنامي في الوقت نفسه. ونحن للاسف غالبا ما نقف موقف المتفرج مما يجري وربما عزّزنا الصورة القديمة بحضورنا المزري ثقافيا وفكريا في العالم المعاصر.

● هل طورت المعرفة الاستشراقية ادراكنا لذاتنا او معرفة الآخر بنا؟

ـ المعرفة الاستشراقية التي استخدمت لتسهيل سيادة الغرب على الشرق معرفة تنبئك عن صاحبها، اكثر مما تنبئك عن موضوعها. وهي تخبرك، كما بيّن ادوارد سعيد، اساسا عن هذا الشرخ الانطولوجي في حياة الغرب، والذي عبر عنه كبلنغ: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا». لذلك نجد ان هذه المعرفة غالبا ما تغرّبنا. فنحن موضوعها ولكننا لا نكاد نميّز انفسنا فيه. فالاستشراق كما يقول سعيد، مجرد «حقل» معرفي لا يوجد معادل مطابق له في الشرق نفسه. وما دامت هذه المعرفة قائمة على تمثيل الشرق على نحو يسوّغ السيادة عليه فانها لم تسهم كثيرا في اغناء معرفة الاوروبي بنفسه، فالمعرفة المغرضة لا يمكن ان تكون اساسا لفهم الذات او الآخر، وهذا حال الغرب مع المعرفة الاستشراقية.

من هنا نجد هذا التململ في صفوف المستشرقين الجدد من الطريق المسدود الذين وجدوا اسلافهم قد وضعوهم فيه، ومحاولتهم الجادة للبحث عن بدائل. والحقيقة ان المؤشرات الايجابية على محاولاتهم هذه واضحة لكل دارس للاستشراق الجديد.

● ولكن هل الاستشراق برمته شيء سيء؟

ـ بالطبع بما ان الاستشراق معرفة وظفت لصالح الآخر في مواجهتنا له. معرفة عانينا الكثير من عقابيل استخدامها لغرض ارادة الآخر علينا، فهو فيما يبدو للكثيرين منا، تقليد بغيض كله سوءات. ولكن الحقيقة غير ذلك. فانت تتعلم حتى من عدوك. ولا ننس ان الاستشراق معرفة تتمتع بحد ادنى من التماسك والمصداقية وشروط البحث الاولوية وينتجها مجتمع له مؤسساته التي تظل لها معاييرها ومقاييسها التي لا تستطيع اية ارادة فردية تجاهلها بسهولة. فالمستشرق لا يستطيع الا ان يقوم بالحد الادنى من متطلبات البحث العلمي وشروطه حتى يقبل المجتمع ما يقدمه هذا المستشرق من معرفة. ولذلك فقد قام المستشرقون بتطوير منهج لتحقيق المخطوطات العربية غدا أنموذجا احتذاه العرب ونقحوه وصقلوه الى ان بلغوا به درجة تقرب من الكمال. وخذ اعمال محمود شاكر، شكري فيصل، عبد السلام هارون مثلا على ذلك. وكذلك قاموا بالاعمال الببلوغرافية التي لم نستطع حتى يومنا ان نتجاوزهم فيها، وباعمال الفهرسة للمخطوطات العربية، وللدوريات الاستشراقية لا نجد لها نظيرا بالعربية. والمحاولات الحديثة للتأريخ للادب العربي هي ايضا مستلهمة من اعمال المستشرقين الاوائل. ودعك من كل هذا وانظر في الموسوعة الاسلامية (بلغاتها الثلاث)، فهذه مؤسسة لم يستطع العرب حتى يومنا هذا نقل حصيلتها الى العربية، او انتاج بديل عنها. اذن المدرسة الاستشراقية قدمت الكثير مما يمكن ان يحتذى من النواحي المنهجية والتي ما زلنا نجهد لنبلغها وما نحن بالغوها الا بشق الانفس.

● هل نستطيع القول ان الاستشراق في ركود الآن؟

ـ طبعا لا. المجتمعات الحية لا تنسى اي وجه من وجوه الانتاج الثقافي والفكري لديها دون تطوير. واستشراق اليوم استشراق متطور افاد من التطور المعرفي في ميدان العلوم الانسانية الذي شهدناه مؤخرا. استشراق اليوم افاد من النقد الموجه اليه من داخله وخارجه، وهو افاد من الانفتاح الهائل على موضوعه نتيجة ثورة الاتصالات الحديثة، وكذلك من اسهامات العرب انفسهم فيه. وقد افاد ايضا من التطورات التنظيمية والمؤسسية التي لحقت الجامعة الاوروبية، وخرج علينا بمؤسسات مهنية جديدة وبدوريات ومنشورات وروح جديدة، تحاول ان ترقى بالمعرفة الاستشراقية لتبلغ درجة المعارف الانسانية الاخرى. ولذلك نلاحظ فيه ميلا كبيرا الى التخصص النوعي من جهة، والى النضج المعرفي في التعامل مع المادة المدروسة من جهة اخرى. واليوم يتحدث الناس عن الاستعراب والدراسات العربية والدراسات الشرق ـ اوسطية، والدراسات الاندلسية، ولكن كل ذلك لا يرضي بالنسبة لنا نحن العرب، وتسألني لماذا؟ واجيبك نحن اولى بثقافتنا، وبتاريخنا، وبلغتنا، وبأدبنا، وبتراثنا. وبكل شأن من شؤون حياتنا، من الآخرين. وينبغي ان نتولى كل ذلك معرفيا لا ان نعتمد فيه على الآخرين. ينبغي ان يُشكل ما نقوم به المجرى الرئيسي للمعرفة المتصلة بنا وان تبقى الجهود التي يبذلها الآخرون مجرد روافد لا اكثر. وهذا، بالطبع، بحاجة الى عمل مضن وشاق وطويل وجاد ومدروس، فلنعمل على تحقيق ذلك لان الانتماء الحق الى العالم المعاصر لا يكون، فيما يبدو لي، الا معرفيا، فالمعرفة قوة، ولا سبيل الى استعادة دورنا الحضاري الا بها□

دمشق ـ و. ت.

> **الاستشراق معرفة انسانية ينتجها البشر ويمكن القول ان هناك استشراقات بعدد المستشرقين**
>
> **الاستشراق الجديد ينوي تقديم صورة اكثر تفهما لواقع العرب والمسلمين من سابقه**
>
> **يتميز عمل المؤسسة الاستشراقية بالتماسك والمنهجية في التحقيق والدراسة حتى ان الكثير من العرب المحدثين استفادوا من ذلك**

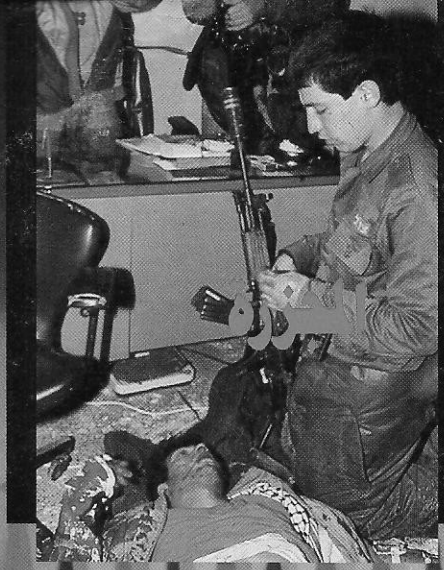

د. حسن صعب: نريد لبنان جديدا وليس لبنان الماضي

منبر حر: حماس والوحدة الوطنية الفلسطينية

Al-Aalam
Issue No: 328

اسبوعية شاملة

العالم

السنة السابعة ـ السبت ٢٦ ايار (مايو) ١٩٩٠م ـ ١ ذو القعدة ١٤١٠هـ ـ العدد ٣٢٨
26 May 1990 No. 328

القمة العربية امام المتغيرات الدولية

تحديات الوحدة اليمنية داخليا واقليميا